الهجرة الأولى إلى الحبشة

خطة الخروج:

كان الخروج من مكة إلى ساحل البحر الأحمر قرب جدة في غاية السرية، ولم يخرج الموكب دفعة واحدة، بل خرجوا فرادى يتسللون، حتى لا يلفتوا أنظار المشركين إليهم عند خروجهم لأن الظروف كانت تتطلب مثل هذا الحذر والتصرف الذكي، لأن تجربتهم مع المشركين مريرة، فالمشركون الذين لم يطيقوا رؤية المؤمنين وهم يؤدون الصلوات في شعاب مكة لا يتصور منهم أن يقفوا موقف المتفرجين الذين لا يبالون ما يحدث حولهم، إذْ كانت الحيطة والحذر في مثل تلك الظروف ضرورة لا غنى عنها. فالمؤمن كيس يأتي بالأسباب اللازمة لكل مهمة ثم يتوكل على الله. فالمشركون كانوا يتربصون ويتتبعون بخطط المؤمنين وما يقومون به، فحتى لا يكشف أمرهم «خرجوا متسللين سراً، وكانوا أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة[1]. منهم الراكب والماشي، ووفق الله للمسلمين ساعة جاءوا بسفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار»[2].

إنه تيسر من الله سبحانه وتعالى وتوفيقه لأوليائه الأبرار الذين لم يخرجهم إلا حبه وطاعته، فالله هو الملك لناصية العباد وتصرفاتهم يقول الله عز وجل:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ

---

(١) تصغير شعبة وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز. وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. انظر معجم البلدان ٣/٣٥٠.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، ص ٢٠٤.

مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

إنها أول هجرة في الدين الإسلامي تترك العصبة المؤمنة بلدها وتفارق ديارها وأهلها إلى مصير مجهول، إلى دار الغربة التي لا يعرفون عنها الكثير وكل الاحتمالات قائمة، وبصحبة هذا الركب عوائل من النساء والأطفال أزواج وزوجات من أصحاب رسول الله ﷺ عزموا على الخروج.

واستطاعوا كتمان أسرارهم حتى تمكنوا من الإفلات من أيدي أعدائهم، والدليل على حسن تصرف المهاجرين عند خروجهم فشل جهود المشركين لأنهم عندما علموا خروج بعض المسلمين أعلنوا حالة الطوارىء واستنفروا قواهم وشمروا سواعدهم، ثم هرولوا نحو الساحل مذعورين، وبذلوا أقصى ما عندهم للظفر والنكاية بهم، ولكنهم لم ينجحوا في مسعاهم، بل خابوا وخسروا وضلت جهودهم.

ومما يؤكد ما سبق هذا النص، إذ يقول: «وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من النبوة فخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر من حيث ركبوا فلم يجدوا أحداً منهم»[2].

تاريخ الخروج:

كان خروجهم في رجب من السنة الخامسة من بعثة المصطفى عليه السلام كما ذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر. ويروي لنا ابن سعد فيقول: «وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حيث نبىء رسول الله ﷺ»[3]. وفي رواية أخرى أوضحت التاريخ ومدة مكثهم في الحبشة

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٠.

(٢) عيون الأثر لابن سيد الناس، المجلد الأول، ص ١٤٤، ط. الثالثة، عام ١٤٠٢ هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، ص ٢٠٤.

أيضاً: «فكانوا خرجوا في رجب سنة خمس، فأقاموا شعبان وشهر رمضان، وكانت السجدة في شهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس»[1].

وقال ابن حجر في الفتح: «وذكر أهل السير أن الهجرة الأولى كانت في شهر رجب من سنة خمس من البعثة»[2].

عدد المهاجرين في الهجرة الأولى:

يقول ابن سعد: «وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة» وذكر ابن إسحاق أن عددهم كان عشرة رجال وأربع نسوة وسرد أسماءهم كالتالي:

وهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عقبة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالله، وزوجته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وزوجته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، وسهيل بن بيضاء.

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة فيما بلغني»[3]. وبعد أن ذكر ابن هشام أبا سبرة بن أبي رهم أورد هذه العبارة: «ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس، ويقال: هو أول من قدمها»، وهذه العبارة توهم بأنهما إسمان لرجل واحد أو بأن أبا حاطب هو المهاجر في الهجرة الأولى بدل أبي سبرة بن أبي رهم ولكن الواقع أنهما اسمان لرجلين والذي يظهر أنهما هاجرا في الهجرة الأولى من قبيلة بني عامر بن لؤي ولم يعد ابن هشام أحدهما، فجعل المهاجرين من الرجال في الهجرة الأولى عشرة رجال فقط بينما الأسماء التي ذكرها إذا اعتبر أبو سبرة، وأبو حاطب يكون العدد أحد عشر رجلاً ولعل هذا يكون هو التوفيق بين الروايتين المذكورتين.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، ص ٢٠٦.

(٢) فتح الباري ١٨٨/٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٤٩ - ٣٥١، ط. الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت.

أما ابن حزم فيؤيد حسب تعداده رواية ابن سعد، «أما عدد النساء فمعظم الروايات تذكر أربع نسوة في الهجرة الأولى، ولكن ابن حزم ذكر أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بأنها اشتركت في الهجرة الأولى مع زوجها أبو سبرة بن أبي رهم»[1].

ولكن ابن حجر في الإصابة وابن عبدالبر في الاستيعاب ذكرا «بأن أم كلثوم هاجرت مع زوجها في الهجرة الثانية إلى الحبشة»[2].

ولقد هاجر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه إلى الحبشة في الهجرة الأولى فقد ذكر هذا ابن سعد في الطبقات قائلاً: «ودخلوا مكة ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيراً ثم رجع إلى أرض الحبشة»[3].

«ولقد جزم العراقي في الدرر أن عدد المهاجرين إثني عشر رجلاً وخمس نسوة»[4].

ومن هذا يتضح أن عدد من هاجر إلى الحبشة رجالاً ونساءً يتراوح ما بين خمس عشرة وسبع عشرة مهاجراً.

إنها رحلة مباركة ظلت سجلاً خالداً لا تزول آثاره ولا تندثر مفاخره، إنها أول هجرة لأمة محمد ﷺ أعطتنا معاني جليلة لا ينساها المؤمنون عبر الأزمنة والدهور، معاني العزة الإيمانية والكرامة الإنسانية ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[5].

---

(١) جوامع السير لابن حزم، ص٥٦، تحقيق الدكتور ناصرالدين، راجعه أحمد محمد شاكر.

(٢) راجع ترجمة أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو من الإصابة والاستيعاب...

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، ص ٢٠٦.

(٤) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف، تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد، الجزء الثاني، ص ٤٨٥، ط. عام ١٣٩٤، القاهرة.

(٥) سورة النساء: الآية ١٣٩.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وبهذه العزة يستشعر المؤمنون قوة عظيمة وغناهم عن سوى الله العزيز الحكيم، وبإيمانهم صمدوا لا التهديد يثنيهم عن الهدف ولا التعذيب الشديد يخضعهم، ولا قساوة المشركين ترهبهم، إنهم مضوا في طريقهم وتحدوا أمر الجاهلية والعصبية القبلية، وباختصار لا الترغيب ولا الترهيب غير موقفهم، لأن الهجرة في سبيل الله أعلى من ذلك كله لأنها مرتبطة بالتوحيد النابع من اليقين المتصل بشغاف قلوبهم، وهذا فوق الاعتبارات العشائرية والإقليمية والمنافع الدنيوية، وفوق كل شهوة عارضة لأن الإيمان فوق المقاييس البشرية وموازينهم، إنه اتصال بين العبد المؤمن وخالقه خالق السموٰات والأرض وهذا الاتصال مستمر لا ينقطع لأنه مشدود بحبل الله المتين فلا تأثره حيل البشر ومكائدهم، لأنه يستمد قوته من القهار القادر على كل شيء الفعال لما يريد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

وانطلقت القافلة تجاه الساحل بقيادة عثمان بن مظعون رضي الله عنه ولم تصادف عقبات تذكر، ولعل توفر عدة عناصر لهذه الهجرة هو الذي سهل أمرها.

الأول: لطف الله عز وجل وتوفيقه أولاً وقبل كل شيء.

الثاني: حسن تدبير الصحابة والسرية التامة التي أحيطت بالهجرة إلى أن تم الخروج من مكة.

الثالث: قلة العدد وسرعة الحركة مكنت المهاجرين من انجاز المهمة.

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

الرابع: وجود سفينتين جاهزتين لنقل المهاجرين إلى الحبشة في الساحل ساعة وصولهم هناك.

وهذا تكريم من الله سبحانه وتعالى حيث أمدهم بأسباب الفلاح وهو الإفلات من العدو الباغي الذي بذل كل ما استطاع أن يبذله. فلما التأم الشمل عند الموضع المحدد والمتفق عليه سلفاً كانت المفاجأة سارة وهو توفيق من الله عز وجل وكرم على عباده الصالحين حيث «وفق الله للمسلمين ساعة جاءوا إلى الشعيبة سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار»[1].

أثر الهجرة في نفوس المشركين:

رغم سرية الهجرة وخروج معظم الصحابة بدون أن يطلع عليهم المشركون إلا أنه بات من المعلوم أن بعض رجالات مكة علم طرفاً من أخبار الهجرة والمهاجرين، وإن كانت المعلومات عن طريق الصدفة المجردة سواء أثناء الخروج من مكة أو بعد ذلك بفترة معينة، من هنا نعلم أن أشخاصاً من المشركين علموا خروج المهاجرين بصفة جزئية وإن كانت الوجهة قد غابت عنهم، وخفيت عنهم التفاصيل، والذي يهمنا في هذه الوقفة القصيرة هو: كيف كان موقف هؤلاء المشركين من عملية الهجرة وما مدى تأثير الخروج من مكة إلى جهة أخرى في نفوسهم سلباً أو إيجاباً. نأخذ نموذجين يتعلقان بحادثة الهجرة.

النموذج الأول:

قصة ابن الدغنة مع أبي بكر رضي الله عنه: عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبي ﷺ قالت: «لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر الصديق مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ «برك

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، ص ٢٠٤.

الغماد»[1] لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة إلى آخر الحديث»[2]. إن خروج أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مكة مهاجراً إلى الحبشة حفاظاً على دينه وسعياً إلى أرض يحقق فيها رغبته في عبادة الله هو الذي حرك نفس ابن الدغنة ونخوته فتذكر فضل أبي بكر وأياديه البيضاء قديماً وحديثاً، وإن حاجة مكة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أكبر بكثير من حاجة أبي بكر إلى مكة، وإن مثله لا ينبغي أن يغادر مكة تحت أي ظرف من الظروف.

إن تأثر ابن الدغنة واضح بتعداد الصفات الحميدة التي يتميز بها أبو بكر حتى كرر ذكرها عند قومه ليقنعهم بما يعزم على فعله.

والصفات المذكورة هي صفات فريدة لا تتوفر لمعظم الناس في المجتمعات البشرية بل هي نادرة، ولذلك بذل أقصى ما عنده لدى زعماء قريش حتى أقنعهم بأنه لا يجوز أن يخرج مثل أبي بكر واعتبر ذلك خطأ جسيماً من قبل المشركين فلم يعارض رأيه أحد من جبابرة المشركين الذين نصبوا العداء لأبي بكر منذ البعثة النبوية.

ومهما تكن القوة الشخصية لابن الدغنة التي تتضح من خلال موقفه

---

(١) برك الغماد: البرك بفتح الباء وسكون الراء ثم كاف. الغماد: بكسر الغين أو ضمها والكسر هو الأغلب، وهو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، رقم الحديث ٣٩٠٥، انظر فتح الباري لابن حجر ٧/ ٢٣٠، وهذا حديث طويل تناولت فيه أم المؤمنين عائشة جانباً من الهجرتين، الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة ومواضيع أخرى كثيرة.

النبيل فإن الذي أيقظ عاطفته الفطرية أو تغليب جانب المصلحة على الجوانب العقدية والتقليدية التي كانت تسود آنذاك أجواء مكة كأنماط في الحياة الجاهلية هو القوة في العقيدة والصرامة في التصرف والعزم على الهجرة في الله. وإظهار الإيمان الذي لم يعرف التردد لحظة وطرح الرغبات والمصالح جانباً ولو اقتضى الأمر إلى فراق مكة التي يحبها الصديق ويودع أهلها الذين هم عشيرته ويغادر الديار، إنها قوة كبيرة كانت بمثابة تحد صارخ زلزل مكة وأهلها وأقنعت الكثير أو أجبرتهم على تغيير مواقفهم باستمرار، لأن الثبات على الحق مؤثر مهما تكن القوة لدى الطرف الآخر والقضية التي نحن بصددها دليل قائم ليبرهن على صحة ما نقول.

إن تلك التضحية التي ظهرت من أصحاب رسول الله ﷺ هي التي أوصلت بعض المشركين قناعة مفادها أن هؤلاء المؤمنين مظلومون وأن خروجهم ليس أمراً طبيعياً، بل رأوا أن ذلك الخروج يمثل تمزقاً للمجتمع المكي وتفتتاً لأسره وخسارة كبيرة لا تعوض، ولولا الخروج الهادف والعزيمة الصادقة على ذلك لما تسنى لمثل ابن الدغنة أن يعبر رأيه بهذه الجرأة، ولما استيقظت عاطفته الجياشة بهذه الطريقة لأنها أصبحت وسيلة سهلة يستفيد منها العقلاء في مجتمع مكة.

ومن الناحية الثانية نستفيد من القصة دروساً وعبراً: من هذه الدروس أنه يجب على المصلحين الذين عقدوا العزم على القيام بمهمة الدعوة أن يكتسبوا الصفات المهمة التي تؤهلهم للقيام لمثل تلك المهمة الصعبة، وينبغي أن يتحلى كل داعية بتلك الصفات التي عددها ابن الدغنة للتدليل بقيمة أبي بكر. إن الداعية الناجح هو الذي يقدم المساعدات للفقراء والمساكين ويصل أرحامه ويعين المحتاجين ويقف بجانب الحق، ويطعم ولا يبخل، إنها صفات وردت في القرآن الكريم بكثرة مثل قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[1].

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٨.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[2] والآيات التي تتحدث عن مساعدة الفقراء والمساكين ومعالجة مشكلات الفقر والحاجة كثيرة ومنها قول الله عز وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[3].

وبمقدار ما يقدمه الداعية من مساعدات مادية ومعنوية لتخفيف معاناة أمته والسهر لحل مشاكلها وتقديم الحلول الناجحة وبمقدار ما يكون عملياً في الساحة الاجتماعية يحترمه الناس ولو كانوا على خلاف معه في الإيمان والعقيدة، أو تتباعد وجهات النظر بينه وبين غيره في المسائل الاجتهادية.

انظر كيف أن ابن الدغنة يشرح صفات أبي بكر وهو معجب به رغم إنه مخالف معه في عقيدته، ولم ينكر أحد من المشركين مقالته الفاضلة مع كراهيتهم لأبي بكر وإيذائهم المتصل واعتدائهم عليه أكثر من مرة.

وهذه الصفات التي ذكرها ابن الدغنة هي الصفات التي ذكرتها خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها لرسول الله ﷺ حين بعثه الله عز وجل مما يدل على فضل أبي بكر رضي الله عنه.

ومن الدروس المستفادة من هذه القصة ما يلي:

لم يذكر أبو بكر لابن الدغنة وجهته في تلك الرحلة، فرغم أنه استعد وتجهز للهجرة إلى أرض الحبشة، وقطع أميالاً في سبيل ذلك فإنه لم يذكر الوجهة الحقيقية بل اكتفى بقوله: «أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي» واضح جداً هدف أبي بكر من الجواب، إنه يريد أن يثير الجوانب النفسية والعاطفية في ابن الدغنة لأنه ذكر ظلم قومه وعسفهم على المؤمنين،

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢.

(٣) سورة البلد: الآيات ١١ ـ ١٦.

وبأنه لم يخرج من بلدته طواعية ومحض اختيار أبداً، بل خروجه اضطراري لأنه مجبور مقهور، ولكنه لم يكتف بذلك، وإنما شرح محور الصراع بين الطرفين وسبب العداوة بينه وبين قومه المحور هو عبادة الله عز وجل.

إن سبب الخروج أصبح واضحاً لدى ابن الدغنة ومحور الصراع واضح أيضاً سمعه من أبي بكر ولكن الشيء الذي لم يقله أبو بكر هو إلى أين يسافر أو يهاجر؟ لأن ذلك سر من الأسرار لا يجوز كشفه لأنه يعرض لإخوانه بعض المخاطر، وينبغي أن يستفيد الدعاة من تجارب الدعاة الأوئل السلف الصالح لأنها مواقف تتجدد مع الأيام والأعوام، فالسرية أمر مهم للحياة الإنسانية، فالقرآن الكريم يورد إشارات مهمة في هذا ففي قصة أصحاب الكهف يقول الله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[1].

ويقول الشاعر في كتم الأسرار:

حسن السر بالكتمان يرضيك غبه ... فقد يظهر السر المضيع فيندم
ولا تفشين سراً إلى غير أهله ... فيظهر خرق السر من حيث يكتم

ويقول شاعر آخر:

لا تذع سراً إلى طالبه ... منك إن الطالب السر مذيع

ويقول شاعر آخر:

اجعل لسرك من فؤادك منزلاً ... لا يستطيع له اللسان دخولاً
إن اللسان إذا استطاع إلى الذي ... كتم الفؤاد من الشئون وصولاً
ألقيت سرك في الصديق وغيره ... من ذي العداوة فاشياً مبذولاً

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٩.

النموذج الثاني:

قصة عمر بن الخطاب مع أم عبدالله ليلى بنت أبي حثمة: عن أم عبدالله بنت أبي حثمة قالت:

«والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر - زوجها - في بعض حاجاتنا إذ أقبل عمر بن الخطاب، حتى وقف علي وهو على شركه قالت: وكنا نلقى منه أذى لنا، وشدة علينا، قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله، قالت: فقلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله أذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام»[1]. إنه حوار مبني على الصراحة دار بين طرفين مختلفين مؤمنة مهاجرة حزمت حقائبها للمغادرة التي مهدت وأعدت الأسباب اللازمة مشدودة الأعصاب من الناحية الثانية لأنها لا تدري ما الذي يحدث لها في الهجرة وهل تعود إلى مكة مرة أخرى، وبين رجل باق على شركه معاند ومجاهر لعداوته.

كان اللقاء مفاجأة مذهلة كشف عمر أمراً خطيراً، أمر خروج أم عبدالله ومعها زوجها الكريم وأدرك عمر حقيقة الموقف إنها الهجرة والمغادرة والخروج من مكة، في ذلك الوقت كانت رؤيته كافية للرعب والخوف بسبب شدته وقسوته على المسلمين، وهذا ما عبرت عنه الصحابية الجليلة أم عبدالله بقولها: «وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا» واستفسر عمر بن الخطاب القصة من أم عبدالله، والاستفسار يوحي بأنه أدرك حقيقة الأمر وتأكد لديه أنهم عزموا على الخروج، ولكن الصحابية رضي الله عنها أكدت له ذلك بدون تردد أو خوف بل بمنتهى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٧٠، ط. الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري.

الصراحة والوضوح ولم تكتف بذلك بل شرحت وبينت سبب خروجهم من مدينتهم، السبب الوحيد هو الظلم الفادح والقهر الفاضح، وذكرت له الرجاء والأمل المرتقب لانتظار الفرج والمخرج، تلك الجمل القصيرة كانت مؤثرة لأنها كلمات قوية تفوح منها رائحة الإيمان والثقة، ورفض القهر والاستبداد ومليئة بالأمل الكبير.

إن هذا الأمر ترك في نفس عمر أثراً جلياً وكأنه تفاعل مع القضية برمتها وبدا وكأنه قد رق قلبه الغليظ سابقاً، وتحركت العاطفة في جنبات عمر حتى جاشت فلم يستطع إخفاء الأمر أو كبت المشاعر الفياضة أمام أم عبدالله. وكانت مفاجأة عندما قال: «صحبكم الله» غيرت هذه الجملة نظرة الصحابية من عمر وتغيرت نظرتها نحوه إلى حد بعيد حتى طمعت في إسلامه وفرحت بذلك وانصرف عمر وقد أحزنه خروجهم.

وسرعان ما وصل عامر زوج أم عبدالله وبشرته بما رأت من عمر بن الخطاب.

إن الدروس المستفادة كثيرة ولكن نكتفي بما يلي:

إن الصبر القوي وتحمل أذى المشركين ثم العزم على الخروج وتقديم التضحيات لأجل رفعة الإسلام وإعلاء شأنه لهي أمور يمكن أن تجعل المرء يعيد تفكيره ويسألها ما هو السبب وراء كل التضحيات؟ ويراجع الحسابات كلها، ولعل هذا الأمر هو الذي غير نفسيات عمر، إن قوة الإيمان وصلابة المؤمنين يؤثر أشخاصاً كثيرين أكثر مما تؤثرهم القوة المادية لدى العدو المتمثلة بالسيوف والقتال والمصارعة في ميادين القتال.

الدرس الثاني: الحفاظ على الأسرار: إن موقف أم عبدالله كان مثل موقف أبي بكر رضي الله عنهما لأنها لم تذكر وجهة الانطلاقة بصفة محددة ولكنها اكتفت بقولها: «نعم والله لنخرجن في أرض الله» أين الأرض المقصودة والمحط الأخير لرحلتهم لم تفصح هذا الأمر لعمر، وهذا يدل على الوعي واليقظة لدى أم عبدالله رضي الله عنها.

كما أنها شرحت الظلم الواقع عليهم من المشركين وعمر كان منهم، لم

يكن ذلك يأساً أو ضعفاً بل كلها كانت أملاً ولذلك ذكرت الأمل بعد الظلم وهذا يمس جوانب عاطفية مهمة وجوانب عقلية.

وتلك دقة متناهية والتزام بمبدأ كتمان الأسرار وعدم كشف الأمور التي لا تخدم القضية حتى لا يستغل أعداء الإسلام تلك المعلومات كمعول هدم وتخريب يجلب على المهاجرين الكوارث والمصائب، أو يضع أمامهم العقبات التي تحول بينهم وبين ما ينشدون إليه.

أول من خرج مهاجراً:

وردت روايات عدة في هذا الأمر في كتب السير عموماً، قال يعقوب الفسوي في تاريخه عن قتادة قال: أول من هاجر إلى الله تعالى بأهله عثمان بن عفان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خرج عثمان بن عفان، برقية بنت رسول الله ﷺ إلى الحبشة فأبطأ خبرهم فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته فقال: على أي حال رأيتهما؟ قالت: رأيته حمل امرأته على حمار من هذه الدابة، وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط»[1] وذكر هذا المعنى ابن كثير[2].

في هذا الخبر رأينا الاهتمام الفائق والمتابعة الدقيقة التي يقوم بها رسول الله ﷺ، إنه اهتمام القائد الناجح لأمته، اهتمام يتناسب مع مقامه المفعم بالرحمة والشفقة، ورأينا كيف أن الرسول ﷺ يدعو للمهاجرين عن ظهر الغيب، كيف لا يتابع التطورات المتعلقة بالهجرة المباركة وهو مهاجر من قلبه وهو الذي أذن لهم بتلك الهجرة المباركة.

استقبال رائع للمهاجرين:

لقد ركب المهاجرون السفينتين المذكورتين وانطلق الجمع الكريم

---

(١) يقعوب الفسوي، المعرفة والتاريخ، الجزء الثالث، ص ٢٥٥.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، الجزء الثاني، ص ٥.

مهاجراً في سبيل الله متحدياً كل قوى الطغيان والجبروت، وسلك طريق البحر المتلاطم أمواجه، إنها حياة من نوع جديد وتجربة رائدة فريدة في نوعها. استغرقت الرحلة ما شاء الله، أن تستغرق وعبرت السفينتان البحر الأحمر إلى الشاطىء الغربي بسلامة الله وحفظه وشقوا طريقهم حتى وصلوا إلى مقر ملك الحبشة وما أن وطئت أقدام الصحابة بأرض الحبشة حتى استقبلهم النجاشي استقبالاً حاراً ورحّب بهم ترحيباً يفوق كل التصورات، فكانت حفاوة بالغة وإكراماً لا مزيد عليه، ولقد أحسن النجاشي ضيافتهم ووفر لهم الأمن التام وكل ضرورات الحياة من مسكن وكسوة وطعام وفوق ذلك توفير الراحة النفسية، فلا اعتداء عليهم من أحد من الناس، ولا يجرؤ أحد أن يستهزىء بهم أو يسخر منهم، بل وجدوا الحرية الكاملة المنشودة، حتى تمكنوا من عبادة الله عز وجل بدون خوف من أحد، بدل الخفاء والتستر الذي لازم الصحابة منذ إسلامهم.

ولقد ظهرت شخصية النجاشي من خلال تصرفاته وقرارته تجاه الضيوف، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «فإن بها ملكاً لا يظلم عند أحد» أو كما قال عليه السلام، إنهم وجدوه كما أخبر المصطفى ﷺ لأصحابه، شخصية فريدة في نوعها تتميز بالذكاء المفرط والعدل المطلق وشفافية عجيبة تجاه ضيوفه في كل المراحل رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

أخبار الهجرة الأولى في الحبشة:

لم تورد كتب السير تفاصيل تذكر عن الهجرة الأولى أثناء إقامة المهاجرين في الحبشة، وإنما التركيز على المرحلة الأولى التي تحدثنا عنها، والمرحلة الأخيرة التي نتحدث عن عودتهم إلى مكة فما هي الأسباب لهذا الأمر؟

الأول: إن المدة التي أقامها المهاجرون في الحبشة كانت قصيرة جداً لأنهم هاجروا إليها في رجب سنة خمس من البعثة النبوية ثم رجعوا إلى مكة في شهر شوال من السنة الخامسة نفسها وهذا معناه أنهم مكثوا فيها شهر شعبان ورمضان ولعل الزيادة تكون أياماً من رجب وأخرى من شوال ليصبح

عدد الأيام التقريبية ثلاثة أشهر، ومن هنا ندرك أنهم لم يستقروا استقرارا كافياً يوفر لنا معلومات وافية.

الثاني: إن أخبار الهجرة الثانية والأحداث الجليلة الحافلة بجلائل الأعمال المثيرة التي دارت في أرض الحبشة المتمثلة بالمواجهات العنيفة بين المهاجرين والمشركين من جهة، وبين المؤمنين المهاجرين والنجاشي من جهة أخرى، تلك الأحداث طغت على أخبار الهجرة الأولى، حيث انصب الاهتمام الكبير على الأحداث الجسيمة التي كادت تفتك بالصحابة رضي الله عنهم.

ولذلك لم نسمع أخباراً مفصلة تتعلق بالهجرة الأولى بين ركوبهم البحر وعودتهم إلى مكة بالأسباب المذكورة.

وعاد المهاجرون إلى مكة، لماذا؟!!!

عاد المهاجرون بعد غياب لم تطل مدته إلى مدينتهم الطيبة ـ مكة ـ ولم يمكثوا في المهجر أطول من ثلاثة أشهر على وجه التقريب.

إن المؤرخين مجمعون على سبب عودتهم من الحبشة فالآراء تدور حول سبب واحد ألا وهو: إنهم سمعوا بإسلام قريش وبأنها سجدت مع رسول الله ﷺ وأنهم صلوا معه جميعاً، وتبعاً لهذا فإن المؤمنين الباقين في مكة وجدوا الأمن والطمأنينة في مكة فقالوا لأنفسهم بل تناقشوا واستقرت الآراء حول الرجوع إلى مكة، فما دام الأمن أصبح متوفراً بسبب إسلام قريش ودخولها في دين الله حتى صلوا مع رسول الله ﷺ زال سبب الهجرة فلا داعي للبقاء هنا بعيداً عن مكة التي يقيم فيها رسول الله ﷺ. وانطلاقاً من تلك الأسباب المعقولة والمنطقية لا مانع من عودتهم والعيش في بطن مكة مع المؤمنين بقيادة المصطفى عليه السلام.

أما الإشاعة التي سمعها المهاجرون وهم في أرض الحبشة فلها قصة مشهورة وهي مرتبطة بسجود المشركين مع رسول الله ﷺ وعندها طار الخبر إلى كل اتجاه حتى بلغ أرض الحبشة إن قريشاً قد أسلمت.

أما سجود المشركين مع رسول الله ﷺ أثناء قراءته سورة النجم فهي

ثابتة في كتب الصحاح وكتب السير. عن عبدالله رضي الله عنه قال: «قرأ النبي ﷺ النجم بمكة فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ أخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. فرأيته بعد ذلك قتل كافراً»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[2]. وقد جزم الواقدي رحمه الله بأن سجود المشركين مع النبي ﷺ كانت في رمضان سنة خمس، وكانت المهاجرة الأولى إلى الحبشة خرجت في شهر رجب. فلما بلغهم ذلك رجعوا فوجدوهم على حالهم من الكفر فهاجروا الثانية[3] ويذكر ابن الأثير السبب الذي دعى إلى عودة المهاجرين من الحبشة إلى مكة المكرمة بعد فترة وجيزة قدرت بثلاثة أشهر.

فقال: «ثم رجعوا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر بعد أن بلغهم أن قريشاً أسلمت»[4].

وتتلخص أسباب عودتهم بما يلي:

أ ـ أنه من الواضح أن العودة كانت مبنية على إسلام قريش وإن إسلام قريش كان مبنياً على ما يبدو سجود المشركين مع المؤمنين في مكة على مرأى ومسمع من أهل مكة فسجود المسلمين والمشركين فسّر بأنه الإسلام وتغيير المشركين موقفهم من الدعوة وبمثابة إعلان جماعي بإيمانهم لأن السجود هي الخضوع لله عز وجل، فحدوثها بالطريقة التي حدثت جعل الخبر ينتشر بسرعة مذهلة كالبرق الخاطف؟ حتى وصل إلى أسماع المهاجرين في أرض الحبشة بزيادة كبيرة مفادها إسلام قريش فاقتنع المهاجرون بصدق الخبر

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، المجلد الثاني، ص ٥٥١.

(٢) المصدر السابق، فتح الباري، المجلد الثاني، ص ٥١١.

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، المجلد الثامن، ص ٦١٥، كتاب التفسير.

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير، الجزء الثاني، ص ٥٢، ط. ١٣٤٩ هـ، راجع سيرة ابن هشام، الجزء الثاني، ص ٥، ط. الأولى ١٤٠٩ هـ، مكتبة المنار، تحقيق الدكتور همام عبدالرحيم سعيد محمد عبدالله أبو صعيليك.

فصدقوه، وعلى ضوء تلك الحالة لم يكن هناك ما يمنع عودتهم، لأن علة الهجرة في نظرهم قد زالت واختفت دواعيها، فالهجرة كانت ضرورة وحالة مؤقتة عكس الهجرة إلى المدينة المنورة.

ب ـ ولعل ازدياد عدد المسلمين وقوتهم ساهم في عملية إقناعهم ومما تجدر الإشارة إليه أن الأخبار التي تذكر إسلام عمر بن الخطاب في الفترة الواقعة بين الهجرتين وأن إسلامه سبب أساسي في رجوع الصحابة الذين هاجروا الهجرة الأولى غير صحيحة. بل هي مستبعدة لأن إسلامه كان في السنة السادسة من البعث»[1].

جـ ـ إن ارتباط المؤمن بالرسالة كان قوياً وحبهم لرسول الله ﷺ كان عظيماً فلم يغادر أحد منهم مكة وفيها رسول الله ﷺ بمحض اختياره وإنما الظروف القاسية هي التي أملت عليهم اتخاذ ذلك القرار الذي أدى إلى هجرتهم، وبعد سماع نبأ إسلام قريش فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين العودة والتمتع برؤية الرسول والعيش معه ﷺ ليعبدوا الله حق عبادته في البلد الحرام، فعادوا فرحين مستبشرين بإسلام قومهم والعودة إلى بلدهم، ولا شك أن تلك السعادة لا تدانيها أي سعادة. ويفهم من عموم الروايات أن المهاجرين الأوائل رجعوا من الحبشة جميعاً كما ذكر الحافظ الذهبي بقوله: «ولما دخل رسول الله ﷺ شعب بني عبدالمطلب[2] أمر أصحابه بالخروج إلى الحبشة، فخرجوا مرتين، رجع الذين خرجوا في المرة الأولى حين أنزلت سورة النجم»[3]. ودلالة الخبر هي أنهم رجعوا جميعاً «رجع الذين خرجوا في المرة الأولى» فرغم التعميم الغالب في كتب السير والمغازي التي تتحدث عن عودة هؤلاء المهاجرين إلا أن بعض الروايات تورد ما يفيد بقاء بعض الصحابة الذين هاجروا في المرة الأولى في الحبشة وعدم عودة بعضهم إلى مكة حتى

---

(١) راجع مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

(٢) إن دخول الرسول ﷺ شعب بن عبدالمطلب كان بعد الهجرة الثانية على ما يبدو، وأن نجاح الهجرة وموقف النجاشي وانتشار الإسلام في مكة كان عاملاً أساسياً للحصار نفسه كما ذكر ابن سعد في الطبقات ٢٠٨/١.

(٣) تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي «السيرة النبوية»، ص ١٨٦، ط. الأولى.

حصلت الهجرة الثانية، فذكر ابن حزم رواية مفادها أن قوماً رجعوا وبقي آخرون في الحبشة فقال: «ثم اتصل بمن كان في أرض الحبشة من المهاجرين أن قريشاً قد أسلمت وكان هذا الخبر كذباً فانصرف منهم قوم»[1]. ومع أنهم «حدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة»[2] إلا أنهم فوجئوا بكذب الخبر بعد أن وصلوا مشارف مكة حيث لا مناص من دخولها أياً كانت الظروف والنتائج المترتبة على ذلك، فلم يتمكنوا من دخول مدينتهم إلا بشق الأنفس وبحماية سادتها المشركين الذين فرحوا بمقدمهم لكي يذيقوهم صنوف العذاب، وكأنهم ظفروا بهم بدون جهد بذلوه في تحقيق هذا الهدف الذي لم يستطيعوا تحقيقه في بداية الهجرة. وعلى كل حال فإن الصحابة «دخلوا مكة ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار، إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيراً، ثم رجع إلى أرض الحبشة»[3].

إنه بلاء عظيم وزلزال عنيف زاد محنة جديدة إلى المحن السابقة وعمق جرحهم أضعافاً مضاعفة بالأسباب الآتية:

الأول: إن هول المفاجأة وما تكشف لهم من حقائق بالغة التعقيد التي أثبتت لهم استمرارية الوضع على ما كان عليه قبل الهجرة وعدم حدوث أي تغيير في مكة لأمور مخيبة للآمال ومثبطة للهمم، ومما لا ريب فيه أن ما صاروا إليه لا يسعد أحداً من المؤمنين مهاجراً أم مقيماً، إنما هي جروح جديدة ضاعفت آلامهم وأحزانهم وأدت إلى شماتة الأعداء المتربصين بهم الدوائر، وتلاشت تلك الآمال والأحلام التي كانوا ينتظرونها منذ أن انتشر هذا الخبر الكاذب إنها ابتلاءات من الله عز وجل يقدر لعباده في هذه الحياة فما عليهم إلا الصبر.

الثاني: انتهز أعداء الإسلام ما حدث للعصبة المؤمنة فاستخدموا كل

---

(١) جوامع السير لابن حزم، ص ٦٥.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي، السفر الثاني، ص ٢٨٧، ط. الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، ص ٢٠٦.

الوسائل القذرة للتشفي والانتقام حتى أذاقوهم صنوفاً من العذاب وتفننوا في ممارسة الأذى والجريمة فاعتدوا عليهم، وفعلوا بهم الأفاعيل: إنها فرصة لهؤلاء الأوغاد الأنذال يستشعرون نشوة الانتصار على المؤمنين بدون أن يكون لهم أي سبب. ألم يحاولوا إيقاف الهجرة بالقوة وإبادة المؤمنين حتى بحثوهم في كل واد لإلقاء القبض عليهم واللحوق بركبهم قبل السفر إلى الحبشة فكانت تلك أمنية غالية عند المشركين إذاً فلا غرابة في المواقف الجديدة، بل هي حلقة من حلقات التآمر والمكر والكيد لهذا الدين ومحاولة جادة ترمي إلى وضع نهاية للدعوة الإسلامية، وتؤكد رواية أوردها ابن سعد هذا المعنى قائلاً: «لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذىً شديداً، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية فكانت خرجتهم الأخيرة أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنتاً شديداً ونالوهم بالأذى، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم»[1].

الدروس المستفادة من هذا الحدث:

ونحن بصدد عودة أصحاب رسول الله ﷺ من الحبشة في الهجرة الأولى رأينا الأسباب الحقيقية وراء تلك العودة فقد تبين أن قرار العودة اتخذ بسبب إشاعة كاذبة انطلقت من مكة إلى الآفاق البعيدة حتى لسمعها أهل الحبشة، وأياً كانت قوة الإشاعة المترتبة على سجود المشركين مع رسول الله ﷺ فقد اتضح للمهاجرين أن ذلك لم يكن كافياً لاتخاذ مثل ذلك القرار الخطير.

ونستفيد من الموقف أنه:

أ ــ لا ينبغي أبداً أن نبني مواقفنا على أخبار وإشاعات غير مؤكدة وبالتالي يجب على المرء المسلم أن يتخذ القرارات المصيرية بعد دراسة مستفيضة لا توجهها العواطف ولا تحكمها الارتجالية، لأن الانسياق وراء

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، ص ٢٠٧.

الرغبات المحببة إلى النفوس لتحقيق هدف نبيل يجر الويلات لأصحابه وينتج من هذا الأمر عواقب وخيمة.

ب ـ إن البقاء على الوضع المتردي غير مقبول بتاتاً فتصحيح الوضع الناجم عن تصرفات سابقة غير سليمة أمر في غاية الأهمية وضروري جداً لتقويم ما أعوج من الأمور ولا عيب في تكرار التجربة السابقة مهما كلف ذلك ما دام يؤدي إلى حياة أفضل، إذا رأت العصبة المؤمنة بجدوى هذا الموقف.

فالصحابة رضي الله عنهم رجعوا من الحبشة بالسبب الذي سلف ذكره، فأدركوا خطأهم وانكشفت الحقائق، عندها لم يترددوا بالعودة إلى الحبشة مرة أخرى فكانت الهجرة الثانية، إلا أنها كانت أشمل من الهجرة الأولى فلا بأس في هذه الحياة أن يغير المرء موقفه السابق عند ظهور الحق واتضاح الرؤية فلا استسلام للواقع المذل بل طلب المعالي من صفات المؤمنين دائماً وأبداً، يقول الله عز وجل في هذا الأمر: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

إن الحياة عصيبة لا تصفوا لأحد، فالوهن أمام الصعاب وهن وضعف فالمؤمن يجب أن يظل قوياً صابراً لأنه عزيز، يقول الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

قال أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

كما يقول صالح عبدالقدوس:

وما لحق الحاجات مثل مثابر ... ولا عاق منها النجح مثل تواني

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.

ويقول حافظ إبراهيم في مسألة الخضوع للمذلة والاستكانة وأنها لا تصلح مع الإنسان:

وإذا ألح عليك خطب لا تهن ... واصبر على الإلحاح بالإلحاح
وخض الحياة وإن تلاطم موجها ... خوض البحار رياضة السباح
واجعل عيونك قبل خطوك رائداً ... لا تحسبن الغمر كالضحضاح
وإذا اجتوتك محلة وتنكرت ... لك فاعدها وانزح مع النزاح

المشككون في أمر الهجرة الأولى!!!

اطلعت على بعض الكتب الحديثة التي تتحدث عن هجرة الصحابة إلى الحبشة، مثل كتاب «بين العرب والحبشة» لعبدالمجيد عابدين.

وكتاب الجهاد في الإسلام، للأستاذ محمد شديد، وغير ذلك وتورد هذه الكتب عبارات تشكك حدوث الهجرة الأولى إلى الحبشة، ويدعى بعض هؤلاء أن الصحابة الذين هاجروا في الهجرة الأولى لم يكونوا مهاجرين فروا بدينهم نجاتاً من العذاب الواقع عليهم، وإنما كانوا وفداً أرسله الرسول ﷺ إلى النجاشي.

يقول الأستاذ عبدالمجيد عابدين ما يلي: «والوضع فيما نعتقد هو أن الفوج الأول لم يكن في واقع الأمر قوماً قد فروا بأنفسهم إلى الحبشة، وإنما كانوا بعثة إسلامية أرسلها النبي ﷺ إلى ملك الحبشة لتتعرف مدى رغبة النجاشي واستعداده لقبول المهاجرين، ولتمهد للمسلمين في البلاد الأكسومي، وكان من أفراد البعثة، التاجر، والمتكلم، وصاحب النفوذ، والخبير بالحبشة وأهلها، ومكثوا في الحبشة فترة قصيرة، يفاوضون الملك في أمر إخوانهم»[1].

ويقول الكاتب في مكان آخر من كتابه «وتكلل مسعى البعثة الإسلامية

---

(١) عبدالمجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، ص ٧٧، ط. غير موجودة، دار الفكر العربي.

بالنجاح، ولم يكن رجوعها لإشاعة سرت بينهم، أن أهل مكة قد أسلموا كما زعم الرواة، ولكنهم رجعوا بعد أن أدوا مهمتهم، وفاوضوا الملك في أمر إخوانهم»[1].

إن العبارات السابقة لا تستند إلى أدلة علمية ثابتة أو غير ثابتة، ويبدو لي والله أعلم أن الكاتب غير مبال فيما يقوله وكأن الحقائق المجردة غير مقصودة عنده في هذا الأمر وإنما سرد الجمل التي يهواها، لأنه يلقى الكلام على عواهنه دون فكر وترو، وتلك آفة عظيمة، لا تتمشى مع الأدلة الثابتة الواردة في الموضوع فلا تحتاج إلى وقفة طويلة بل نكتفي مما يأتي.

الأول: إن كتب السيرة النبوية تعنون قبل الشروع في حديثها عن الهجرة إلى أرض الحبشة عنواناً بارزاً لا يخفى على أحد، وهو:

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

ورد هذا العنوان في السيرة النبوية لابن هشام «ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة».

كما أورده الحافظ ابن كثير في كتابه السيرة النبوية الشريفة «فكانت أول هجرة كانت في الإسلام» ذكر الهجرة الأولى في كتابه البداية والنهاية.

وأورد البيهقي هذا العنوان في «دلائل النبوة».

وابن حجر العسقلاني في «الإصابة في تمييز الصحابة».

وابن عبدالبر في «الدرر في اختصار السيرة».

وابن الأثير في «أسد الغابة معرفة تاريخ الصحابة».

والقرطبي المالكي في «الاستيعاب في أسماء الأصحاب».

والحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء»، وغير ذلك.

وما من كتاب يتصدى للحديث عن الهجرة إلى الحبشة إلا تحدث عن

---

(١) المرجع السابق، بين الحبشة والعرب، ص ٧٩، ط. غير موجودة، دار الفكر العربي.

الهجرة الأولى إلى الحبشة وذكر أسماء المهاجرين وفصل الأخبار وأطنب وجال في ساحاتها جولاناً، ومن تلك الكتب كتب السير والمغازي وكتب التاريخ وكتب تراجم الصحابة، وكتب الحديث الشريف، وكتب الفقه والمذاهب، وكتب التفاسير وكتب الأدب.

فكيف أنكرها والمسألة أوضح من الشمس، وهل كل هؤلاء الذين هم خير الصحابة والتابعين أو المحدثين والفقهاء في مختلف العصور لم يفهموا هذا الموضوع فظل مجهولاً حتى وقتنا هذا.

إن هذه الهجرة الأولى صفحة من تاريخنا المجيد لا تنمحي آثارها فإنكارها أمر غريب لأنه يتجاهل كل النصوص الواردة فيها وهو إنكار أو جحود للنصوص والواقع معاً.

ثانياً: إن الألفاظ والعبارات التي روت لنا كتب السير والتاريخ والتراجم متقاربة إلى حد كبير، حيث تفيد دلالة واحدة لا تعدد فيها ولا غموض، اقرأ معي العبارة التالية: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام»[1].

هل رأيت عبارات محددة المعاني واضحة الدلالة مثل هذه، لم تترك مجالاً للمناقشة أبداً بل وضعت النقاط على الحروف وأوضحت هدف الخروج بجلاء لا لبس فيه، وهو أنهم لم يخرجوا للتفاوض، ولكنهم خرجوا فراراً بدينهم، بعد إذن رسول الله لهم بالخروج، أو بعد أن أمرهم[2].

ثالثاً: إن الوفود التي أرسلها النبي ﷺ إلى ملوك الأرض كانت تحمل رسائل مهمة إلى هؤلاء الملوك تدعوهم إلى الإسلام، ولم يذكر التاريخ الإسلامي حسب معرفتي المحدودة ولا كتب السير أي رسالة من هذا النوع

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٤٩، ط. الثانية.

(٢) راجع مشروعية الهجرة إلى الحبشة والصيغ الواردة فيها، ص ٣٧.

حملها المهاجرون إلى النجاشي في هجرتهم الأولى، كما أن الذين يزعمون الرأي القائل بأنهم كانوا وفداً إلى النجاشي لم يوردوا دليلاً واحداً في كتبهم وكان من الأفضل لهم: «إما أن يقبلوا الأدلة الثابتة في المصادر الإسلامية وإما أن يأتوا بأدلة أخرى تقوي مزاعمهم، ولكن شيئاً من هذا أو ذلك لم يحدث».

رابعاً: أن شريحة المهاجرين في الهجرة الأولى تتكون من نوعيات معينة لا تبدو صفات الوفد الذي ينوي تجشم الصعاب وركوب الأهوال، وفي المهاجرين عدد من النساء اللواتي هاجرن مع أزواجهن وهذا أمر غير معقول إذ ليس من العرف السائد في ذلك الوقت أن يرسل وفد يضم الرجال والنساء على حد سواء في الظروف العادية، كما أن للمخاطر الكبيرة التي يواجهها المهاجرون في رحلتهم عبر البحر الأحمر ثم المسافات التي هي بين مكة والبحر، وبين البحر حتى بلاط النجاشي كل هذا لا يتناسب مع ما يدعيه الكتاب ولا نكاد نفهم الحكمة من وراء هذا الزعم بالإضافة إلى ذلك أن حجم المهاجرين غير مناسب لسبب كثرتهم فهم يربون نحو عشرين شخصاً رجالاً ونساءً. فما هو الداعي لاشتراك هذا العدد الضخم في وفد يفترض أن تتم أموره بالسرية التامة في جو كأجواء مكة التي تحيط بها المخاطر من كل جانب.

خامساً: إن لدى الرسول علماً بأرض الحبشة وملكها وشعبها، إذاً لم يكن الاختيار بمجرد صدفة، بل كان الرسول ﷺ على علم ومعرفة تامة، وهذه كافية لبعث الطمأنينة إلى قلوب أصحابه فالعلاقة بين الجزيرة وبين الحبشة كانت طبيعية، فهؤلاء يستفيدون من تلك العلاقة قدر الإمكان فلم يكن هناك ما يستثير الحبشة ضدهم.

سادساً: ينكر الكاتب سبب رجوع الصحابة المهاجرين إلى مكة، ونفى أن تكون الإشاعة التي سرت بينهم بإسلام أهل مكة سبباً في الرجوع، ولكن الشيء الغريب لم يقدم دليلاً واحداً في هذا الشأن مع أن هذه المسألة مجمع عليها ومُسَلَّم بها في كتب السير والمغازي والتفاسير بل هو السبب الوحيد الذي

ذكرته المصادر الإسلامية، فإنكارها بدون إتيان أدلة أو دليل واحد على الأقل هو ضرب من العبث.

وهروب من الحقائق العلمية إلى الأوهام أو الخيالات الواسعة، وهي جرأة في غير محلها، فينبغي على أي كاتب أن لا يرفض الأدلة التي أمامه بسبب أنها لا توافق هواه، وتلك آفة أصابت طائفة من الكتاب في العصر الحديث.

سابعاً: إن المعلومات الوافرة التي رجع بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم من هجرتهم الأولى إلى الحبشة المتعلقة بموقف النجاشي وإكرامه لهم وطبيعة أرض الحبشة لهي عوامل مشجعة مهدت الطريق وسهلت السبيل لهجرة أوسع نطاقاً بعد ذلك، ولعل تلك العوامل والخبرة المكتسبة لدى المهاجرين في الهجرة الأولى، ذللتا كثيراً من الصعاب عند الهجرة الثانية، أما أن نقول بأن الهجرة الأولى سبب في الهجرة الثانية فهذا غير صحيح، بل نقول إن الظروف والأسباب المؤدية إلى الهجرة الأولى ما زالت قائمة في مكة وقتئذ، بل اشتدت المحن، وتضاعف العذاب مما جعلهم يهاجرون إلى الحبشة بعدد أكبر من العدد السابق بعد أن أذن الله ورسوله لهم بالهجرة المباركة.

ومن الذين قالوا مثل الرأي السابق وإن كان أخف لهجة وأحسن أسلوباً وألطف عبارة الأستاذ محمد شديد فيقول في هذا الأمر: «ثم إن هجرة الحبشة كانت على دفعتين. الدفعة الأولى من قلة فيها عثمان بن عفان وزوجته بنت رسول الله ﷺ، ولم تمكث في الحبشة إلا مدة قصيرة ثم عادت إلى مكة، والغالب أنها كانت وفداً بعث به رسول الله ﷺ لمقابلة النجاشي، والاطمئنان منه على استعداده لقبول المهاجرين، ثم عاد الوفد إلى الرسول ﷺ بما تم الاتفاق عليه، فهاجر المسلمون بعد ذلك على هذا الأساس»[1].

إن قراءة عابرة لكتب السير والتاريخ تكشف حقيقة الموضوع بكل

---

(١) الأستاذ محمد شديد، الجهاد في الإسلام، ص ٥١، ط. الأولى ١٤٠٩ هـ، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

سهولة ويسر والأدلة في هذا الموضوع متكاثرة جداً فالسلف الصالح لم يتركوا شيئاً يتعلق بالرسول وأفعاله، فكتب الرسول والوفود التي أرسلها إلى ملوك الأرض أو غيرهم سجلت بالكامل بل أفردت لها بعض التصانيف كما سترى عند الحديث عن كتب الرسول. فمثل هذا الوفد لا يخفي أبداً.

قصة الغرانيق وآراء العلماء فيها:

إن هذه القصة ليست جزءاً من أحداث الهجرة، ومع ذلك يرد ذكرها عادة عند الحديث عن عودة المهاجرين الأوائل من الحبشة إلى مكة بسبب سماعهم بإسلام المشركين، وهذا بدوره ترتب على سجود المشركين مع رسول الله، والقصة تدور حول هذا الموضوع، ولهذا أحببت أن أذكر طرفاً منها في هذا المقام.

قال الحافظ في الفتح: أخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قرأ النبي ﷺ بمكة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فنزلت: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية، وأخرجه البزار، وابن مردويه من طريق آخر عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ فيما أحسب ـ[1].

وقال البزار: «لا يروي متصلاً إلا بهذا الإسناد» وبعد أن ذكر الحافظ رحمه الله تعالى من خرج هذه القصة، ومنهم ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب، وموسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري وأبو معشر في السيرة له عن محمد بن كعب القرظي، وغير ذلك... قال: وكلها سوى

---

(١) أحسب أي أظن صيغة شك في وصل الحديث عن ابن عباس وهو يقلل الثقة بالرواية.

طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإلامنقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين. أحدهما: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد بن شهاب والثاني: ما أخرجه من طريق المعتمد بن سليمان وحماد بن سلمة»[1]. ومع هذا فقد طعن في القصة عدد كبير من المحدثين والمحققين الذين بلغوا شأناً عظيماً بسبب جمعهم بين الرواية والدراية، والحفظ والفهم.

وأختار مواقف طائفة من هؤلاء من هذه القصة:

قال الإمام القاضي عياض في الشفا[2]: «فاعلم أكرمك الله تعالى أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين، أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه.

أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلفقون من الصحف كل صحيح وسقيم، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فيما أحسب وذكر القصة»[3]. يقول القاضي: هذا توهينه من طريق النقل، أما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة قبل النبوة، أما من تمنيه أن ينزل عليه سورة مثل هذا من مدح آلهة غير الله تعالى وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه عليه جبريل عليهما السلام، وذلك كله ممتنع في حقه عليه السلام أو

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، المجلد الثامن، ص ٤٣٩.

(٢) شرح الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض، المجلد الثاني، ص ٢٢٤ ـ ٢٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٣) وفند أسانيدها، وأورد الطرق كلها وبين عللها.

يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً وذلك كفر، أو سهواً وهو معصوم من هذا كله، وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته عليه الصلاة والسلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك مما يلقى الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على الله تعالى لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [1] الآية. . وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ الآية[2]. ووجه ثان وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً، وذلك أن هذا الكلام لو كان صحيحاً كما روى لكان يعيد الالتئام لكونه متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم[3].

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة، فلو كان ذلك صحيحاً لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة».

---

(١) سورة الحاقة، الآيات ٤٤ - ٤٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٤.

(٣) يقصد القاضي عياض من هذا كون قصة الغرانيق المزعومة وضعت بين قوله تعالى: **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى﴾** بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: **﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾** الآية. فكيف يأتي مدح آلهة المشركين بين ذم سابق وذم لاحق جاء بعد المدح مباشرة فهذا لا تقبله الطبائع السليمة ولا تبيحه بلاغة العرب ولغتهم، فلو ورد ذلك من رسول الله ﷺ لعابوا عليه بذلك.

قال الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ وقد سئل عن هذه القصة ـ إنها من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتاباً.

وقال الإمام البيهقي وهو من كبار رجالات السنة وصاحب السنن الكبرى هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.

وكذا أنكر القصة القاضي أبو بكر بن العربي، وطعن فيها من جهة النقل وأنكرها الإمام أبو منصور الماتريدي حيث قال: «الصواب أن قوله: «تلك الغرانيق العلا» من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين»[1].

وقال ابن كثير: «قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم»[2].

وقال الشوكاني في تفسيره: «ولم يصح شيء من هذا ولا يثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله ثم ذكر بعض الآيات الدالة على البطلان ثم قال: «وقال إمام الأئمة ابن خزيمة، إن هذه القصة من وضع الزنادقة»[2].

أما الألباني: فقد أورد الروايات الواردة في شأن القصة وقومها من ناحية أسانيدها، فبعد أن فرغ من ذلك قال: تلك هي روايات القصة، وهي كلها كما رأيت معلة بالإرسال والضعف والجهالة، فليس فيها ما يصلح للاحتجاج به، لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير، ثم إن مما يؤكد ضعفها، بل بطلانها ما فيها من الاختلاف والنكارة مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة.

أولاً: في الروايات كلها، أو جلها أن الشيطان تكلم على لسان

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، الجزء الأول، ص ٣٦٥، طبعة دار القلم الأولى عام ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٨ م، دار القلم، بيروت، لبنان.

(٢) تفسير فتح القدير، محمد علي الشوكاني، المجلد الثالث، تفسير سورة الحج.

النبي ﷺ بتلك الجملة الباطلة التي تمدح أصنام المشركين «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى».

ثانياً: وفي بعضها: «المؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاء به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ».

ثالثاً: وفي بعضها: «ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان فهذه الجملة خلاف سابقتها».

رابعاً: وفي بعضها: «أن النبي ﷺ بقي مدة لا يدري أن ذلك من الشيطان».

خامساً: وفي بعضها: إنه سها حتى قال ذلك، فلا ينتبه من سهوه.

فهذه طامات يجب تنزيه الرسول ﷺ منها. فثبت مما تقدم بطلان هذه القصة سنداً ومتناً»[1].

وقال الإمام الآلوسي في التفسير: «لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء، عارفون بالغث والسمين من الأخبار وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه فلم يردوه إلا مردوداً، وهم أكثر ممن قال بقبوله ومنهم من هو أعلم منه، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين، وفات ذلك القائل بالقبول، ولعمري أن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة، ثم وفق الله تعالى جمعاً من خاصته لإبطاله. أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ثم نسخه سبحانه وتعالى، ولا سيما وهو مما لم يتوقف على صحته أمر ديني، ولا معنى أية، ولا سوى أنها يتوقف عليها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد»[2].

---

(١) نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، محمد ناصرالدين الألباني، ط. الثانية ١٤٠٩ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

(٢) السيد محمود أفندي الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

ويقول الشنقيطي في أضواء البيان: «إن بطلان قصة الغرانيق في نفس سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم بوجود قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول، لأن النبي ﷺ قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وليس من المعقول أن النبي ﷺ يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره آلهتهم بخير المزعوم، إلا وغضبوا ولم يسجدوا، لأن العبرة بالكلام الأخير»[1].

ورغم ما قاله المحققون حيال القصة سنداً ومتناً والذي ذكرته طرفاً منه إلا أنه لو لم نجد إلا معارضتها ومخالفتها الواضحة للآيات القرآنية لكفى تهافتاً للقصة المزعومة، فلو سلمت القصة من أي علة قادحة من علل الحديث المعروفة لن تكون مقبولة في أي حال من الأحوال فأي علة أشنع من أن تكون القصة ضد القرآن الكريم وتصطدم مع الإجماع بعصمة الأنبياء. وهذه بعض الآيات قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4]. وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأي سلطان أكبر من القول بأن الشيطان تمكن من فؤاد النبي ﷺ حتى زاد القرآن الكريم ومن عند نفسه أنطقه على تزكية الأصنام، سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/٧٢٧.
(٢) سورة الحجر: الآية ٤٢.
(٣) سورة سبأ: الآية ٢١.
(٤) سورة النحل: الآية ٩٩.

ومن الآيات التي تدل على بطلان القصة، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[3].

ومن الآيات البينات التي تدل على بطلان القصة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[5]. فنفى الله سبحانه وتعالى المقاربة للركون، فضلاً عن الركون إليهم[6].

ويقول الغزالي في فقه السيرة: «والذي ورد في الصحيح أن الرسول ﷺ قرأ سورة «النجم» في محفل يضم مسلمين ومشركين، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ﴾[7].

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣، ٤.
(٢) سورة الشعراء: الآيتان ٢٢١، ٢٢٢.
(٣) سورة الحجر: الآية ٩.
(٤) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ - ٤٧.
(٥) سورة الإسراء: الآية ٧٤.
(٦) فتح القدير للشوكاني ٣ تفسير سورة الحج.
(٧) سورة النجم: الآيات ٥٣ - ٦١.

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين مع غيرهم من المسلمين»[1].

اللغة العربية وقصة الغرانيق:

ومما يدل على افتعال قصة الغرانيق ما ذكره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في رد هذه الفرية، وهو أن وصف العرب لآلهتهم «بالغرانيق» لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم إلا ما جاء في «معجم ياقوت» من غير سند، ولا معروف بطريق صحيح، والذي تعرفه اللغة أن الغرنوق[2]، والغرنوق، والغرنيق، والغرنق[3] اسم لطائر مائي أسود أو أبيض، ومن معانيه الشاب الأبيض الجميل، ويطلق على ذلك ولا شيء من معانيه اللغوية يلائم معنى الآلهة والأصنام حتى يطلق عليها في فصيح الكلام الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان»[4].

إن قصة الغرانيق واحدة من عشرات القصص الخرافية الباطلة التي سودت على صفحات التفاسير والتاريخ في غفلة من المسلمين، واختلطت مع الحقائق العلميّة حتى استقرت في عقول الأجيال المتعاقبة من أبناء الأمة الإسلامية، وهي فرية على الله عز وجل، وإنكار لعصمة الأنبياء والرسل التي انعقد عليها الإجماع ومخالفة للواقع التاريخي الذي عاش فيه الرسول ﷺ.

وصحابته الكرام الذين كرسوا جهودهم لرفع راية التوحيد، فالرسول لم يمدح صنماً في جاهليته فكيف يمدح أصنام المشركين بعد أن منّ الله عليه بالنبوة وبعد خمس سنوات تعالت فيها الآيات القرآنية التي كشفت وتكشف حقيقة الأصنام، فلو حدث ذلك لكان تناقضاً في القرآن الكريم، ولأدى هذا

---

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي، ص ١١٧، ط. السابعة عام ١٩٧٦ م، دار الكتب الحديثة، مصر.

(٢) الغرنوق: بضم الغين المعجمة وبكسرها.

(٣) الغرنيق: بضم الغين المعجمة وبكسرها.

(٤) السيرة النبوية، محمد بن محمد أبو شهبة ١/٣٦٧.

بدوره إلى فتنة عارمة في المسلمين أنفسهم، والقصة المزعومة ضد القرآن كما رأيت، وهي انتقاص في رسول الله ﷺ.

وفوق هذا كله لم تسلم جميع الروايات من المقال فهي معلة بالإرسال والضعف والجهالة، وأحسن ما في هذه الروايات الواردة في قصة الغرانيق الحديث المرسل الذي استقرت آراء معظم العلماء بعدم قبوله، بأن حكمه حكم الحديث الضعيف كما يبين ذلك ابن الصلاح، والخطيب البغدادي والإمام مسلم وغيرهم وعلى هذا فإن جمهور علماء الأمة لم يقبلوا الاحتجاج بالمرسل إلا بشروط صعبة للغاية يستحيل توافرها هنا[1]. فهذه القصة لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تكون وسيلة تؤدي إلى هدم حقائق الدين الثابتة من القرآن والسنّة الصحيحة، لأنها من الأوهام والدسائس التي تفتح باباً واسعاً للفتنة لا يمكن سده إلا بجهد الجهابذة، ومشقة كبيرة مع العلم أنه لا يوجد أمر من أمور ديننا يتعلق بهذه الفرية التي وصفها العلماء الأجلاء بأنها من وضع الزنادقة والمنافقين. والله أعلم.

---

(١) قال النوي في التقريب.. ثم المرسل حديث ضعيف عند جماهير المحدثين والشافعي وكثير من الفقهاء وأصحاب الأصول، ومن الشروط التي ذكرها النووي في التقريب: «فإن صح مخرج المرسل بمجيئه من وجه آخر مسنداً أو مرسلاً أرسله من أخذ عن غير رجال الأول كان صحيحاً». وقال السيوطي في تدريب الراوي في شرح تقريب النووي بعد أن ذكر الشروط السابقة: «هكذا نص عليه الشافعي في الرسالة مقيداً له».

١ ــ بمرسل كبار التابعين. ٢ ــ ومن إذا سمى من أرسل عنه سمي ثقة. ٣ ــ وإذا شاركه الحفاظ المأمونون لم يخالفوه. ٤ ــ وزاد في الاعتضاد أن يوافق قول صحابي أو يفتي أكثر العلماء بمقتضاه، فإن فقد شرط مما ذكر لم يقبل مرسله فإن وجدت قبل. راجع تدريب الراوي في شرح تقريب النووي ١٩٨/١، ط. الثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، لبنان.